

ترجمة الاستعارة في رواية ثاغست، القديس أوغستين في الجزائر، لكبير عمي

بوجمعة شتوان
جامعة مولود معمري
تيزي وزو

تطرح الترجمة إشكالية كبيرة تتعلق بطبيعة النقل المثالي من اللغة المصدر إلى اللغة المستهدفة. ويتعدّد هذا الطرح في الترجمة الأدبية، والاستعارة بوجه خاص، لذلك يضع¹ Georges Mounin نفسه موضع محامي الشيطان عندما يتبنّى بالإيجاب محتوى سؤال حول ما إذا كانت الترجمة ممكنة. ومن بين الحجج التي يعتقد في وجاهتها، يذكر ما أمكنه تسميته بـ "الكليات". ويقدم أمثلة تتعلق بالمقومات الذرية والسمات الخاصة بالكليات البيئية مثل: البرودة والحرارة، الأمطار والرياح، الأرض والسماء، الكائنات الحيوانية والكائنات النباتية، والظواهر الزمنية الطبيعية، النهار والليل، وأجزائهما، غير أن اللغة وحدها لا تمكن المترجم من تحديد العلائق بين الكائنات والأشياء وفهمها، ولذلك لا بد له أن يبحث عن دور للثقافة والسياسة والعقيدة في فهم الخطاب وتأويله وترجمته.

من الأوليات الأساسية التي تشغل بال المترجم مسألة طرق مقارنة الواقع في اللغة المصدر وطرق نقله في اللغة المستهدفة، وهي مسألة ذات أبعاد نظرية وتطبيقية لعبت القيام بتأويل الإسقاطات في العبارات الاستعارية من وجهة نظر تزعم أن الصياغات اللغوية تُدرك انطلاقاً من كلمات ترى الواقع دوالاً وليس مدلولات: مع ملاحظة أنها ليست صياغات حاملة للواقعة ذاتها، فكل كلمة تأخذ موقعها في العبارة ومن خلال التأويل الذي يقترحه القارئ لاستعارات النص المطروح للتداول².

يظهر من هذا أن القراءة المسندة إلى دور الاستعارة في الترجمة تجد امتدادها في نظرية جورج موانان. أنه لا يمكن القول بنجاح الترجمة من عدمها، دون معرفة درجة الإلمام بمجموع العلاقات

اللغوية فهما وتأويلا، وفي هذا المستوى، حسب Mounin وبعده Berman³، ينتهي التعارض بين الاستعارة وبقية أدوات النص، ويصير لهذه العلاقات، في رواية "ثاغست القديس أوغسطين في الجزائر" التي تحكي قصة حياة القديس أوغسطين ما يفيد بكفاءة المترجمة آمنة بلعلى في اكتشاف المقابل الحرفي والإيحائي لاستعارات الرواية، ولا يأخذ التأثير بعده إلا باستعارات مشابهة، أو بديلة تحتفظ لنفسها بالتأثير نفسه الذي تحدثه في اللغة المصدر وإن جهدا كهذا يمكن من:

أ- تمثل الأطروحة الكامنة وراء خطاب الاستعارة، ودورها في تحقيق درجة عالية من الانسجام بين اللغة المصدر واللغة المستهدفة.

ب- معرفة الكيفية التي تستطيع بها الاستعارة أن تخلق في اللغة المستهدفة نسقا من التوقعات الثقافية والنفسية والتاريخية بالدرجة ذاتها التي أحدثتها في اللغة المصدر.

ومن هنا تأتي مختلف المفاهيم المجردة، والمفاهيم المتحركة في طبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والثقافة، في القول إن الترجمة ستكون فاعلة عند نقطة تقاطع الخبرة بمجموع هذه المفاهيم من جهة، والحرص على ألا تكون الترجمة بين لغتين وثقافتين فحسب، ولكنها تكون على نحو ملائم بين استعارات تكون المفصل القائم بين لغة المصدر واللغة المستهدفة.⁴

يرتبط سياق استعارات رواية "ثاغست أوغستين في الجزائر" بلغة مشبعة بثقافة تهيمن عليها مرجعيات دينية وسياسية واجتماعية أساسية، يمكننا عدها كليات تخص نسقا من التوقعات المحددة من كاتب الرواية في اللغة المصدر (اللغة الفرنسية). وإذا كانت الأهمية الممنوحة للاستعارات في معظم النظريات المتعلقة بترجمة الاستعارة- بكونها المعيار الأنسب في القول بنجاح الترجمة من عدمها- فهي أقرب إلى أن تكون نقاط الارتكاز في نقط عديدة من محيطها، وأن اختيارها ينبني على أسباب يُستدل بها على مواقعها من الخطاب وذلك بناء على مل يلي:

1- إسهامها في الكشف عن هوية وطنية يتجاذبها لسان متعدد تنوزعه مرجعيات دينية/مسيحية واجتماعية وسياسة يعود عهدها إلى القرنين الثالث والرابع للميلاد. ويرجع أصل استثمار الترجمة في تأكيد الهوية الوطنية إلى وقت بعيد. وهي، هاهنا، تمنح مفهوم الهوية دلالة يتجاذبها تفاعل بين ثقافتين ولغتين يكرس ماهية هذه الهوية ودور الاستعارة في تأصيلها.

2- إسهامها في فعل الحفر في الذاكرة الجماعية الموروثة باعتبار الرواية هي جزء من تاريخ نوميديا وتاريخ علم من أعلام الدين المسيحي في شمال أفريقيا.

وبالرغم قصر حجمها، فهي تمثل كلا متكاملا شكلا ومضمونا، وتشغل بكافة أبعادها، وتحقق خطابها بواسطة التعبيرات الاستعارية، حيث يعد خطاب رواية "ثاغست القديس أوغستين في الجزائر" من بين أخصب الخطابات وأكثرها استعمالا للاستعارة.

تترك النظرة الأولى لاستعارات الرواية انطبعا ببساطة أسلوبها ووضوحه، حيث تتميز جملها بالقصر وسهولة قراءتها وفهمها، لكن النظرة المتفحصة التي تتطلبها الرواية قد لا تسمح للقارئ غير المتخصص بادراك أعماقها، نظرا لاستعصاء الإحاطة بسماتها الدلالية والتصورية. ومن هنا يمكن القول بأن هذه الرواية تؤسس لتجربة في الترجمة لعمل إبداعي غير مألوف في الجزائر.

نظرا لما سبق، فإن أي تساؤل عن دور الاستعارة في تثمين هذه الأسباب وتفعيلها، سيثير حوله سلسلة من الأسئلة الخاصة بـ: "الفهم" و"التأويل" و"النقل" و"المعنى" و"التوصيل"، إلى غير ذلك من الأسئلة التي تؤكد الطابع المركب لخطاب الاستعارة، وسياقاتها المتنوعة، وطرق تداولها.

بهذا المعنى، تكون إعادة صياغة التعبيرات الاستعارية المتداولة في النصوص الأدبية وليدة ما هو وليد تشاكلات دلالية Isotopies sémantiques⁵ ثاوية خلف الكلمات في لغة المصدر، يستدعي فهمها وتأويلها وترجمتها سلمية من الكفاءات تنتمي إلى:

- الدور الذي لعبته المترجمة من زاوية فهمها لاستعارات الرواية وتأويلها.

- استيعاب معاني الاستعارة المصطلحية.

- الدور الذي لعبته سمات الاستعارة الدلالية والتصورية وإيحائها وجذورهما التي تؤسس وظيفتها في ثقافة لغة المصدر.

- استيعاب الملامح المميزة للاستعارة في الرواية وأنماطها وسياقاتها المختلفة.

إن اصطفااف المعجمي، الدلالي، التصوري، لا يتعلق باختيار لفظي، بقدر ما يشف عن طبيعة العلاقة بين مجالين وفضاءين، فيما تبرز التفرقة بين المعنى الحرفي (الذي غالبا ما يكون خاطئا) والمعنى المجازي (يمكن أن يكون صحيحا أو خاطئا، ولكنه في أغلب الأحيان يكون صحيحا) ومن ثمة إدراك الوحدة المفهومية المُسند إليها تمتين الصلة التي تقيمها الاستعارة من خلال:

- الفائدة التي تقدمها الاستعارة ذاتها لعلم الترجمة. فهي سبيل التحكم في التمهصلات الواقعة بين الصريح والضمني، وبين المحسوس والمعقول، وأيضا بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي، وبين الشكل والمعنى.

- أماكن عدم الثبات داخل الخطاب، ونظام العلاقات بين المجالات والفضاءات وطرائق العبور من المعنى التقريري/المباشر والمعنى المجازي.

- فعل التواصل والتفاعل بين لغة المصدر واللغة المستهدفة. ليست "هذه الصلة" سوى هذه الإضافة الإجرائية القادرة، بعفوية، على رسم الحدود الفاصلة بين مختلف المجالات والفضاءات، وبالإمكان التشديد على أهمية هذه الصلة، ولكن شريطة إسهامها في حركية خطاب الرواية، وأن تكون قاعدة الحدس بأفاهه المنتظرة أو المغايرة.^{6*}

يستدعي الكشف عن السمات الدلالية والسمات التصورية الحفر في نسق كليات تاريخية دينية حيث توجد الأشياء الدينية والثقافية والاجتماعية في كل مكان داخل الرواية، ولهذه الأشياء أسماء. ومثال ذلك: تأخذ مرجعية أسماء أوغسطين Augustin وجوليا Julia

باترييوس Patricius وأنطونان Antonin وليبيانوس Libanus وميمون Maimon، على عاتقها الدلالة بالإحالة على الفكرة التي تولدها سمات تصويرية ترتبط بمقاصد مألوفة في مرجعيات تؤسس لفهم على شكل موسوعة، لا يتمكن منها إلا العارفون بخبايا الحقل وأصوله إنجازا ودقة ووضوحاً.⁷ ويتعلق الأمر بشخصيات تاريخية مقترنة بإمكانة تاريخية مثل: ثاغست، قرطاج، بونة، نوميديا، روما، القدس، نهر التيبر وغيرها.

تسمح لنا طبيعة العلاقة- حرفية/ مبتذلة كانت أو إيحائية- التي تربط هذه الأسماء بالاستعارة أن تضع موضع السؤال العديد من الافتراضات الخاصة بالعلاقة القائمة بين هذه الأسماء والثقافة المنتمية إليها كالنوميديّة والرومانية والوثنية والمسيحية واليهودية.

ويمكن إثارة هذه العلاقة في صيغة سؤاليين متداخلين: يتصل أولهما بطبيعة الاختلاف بين الثقافتين والروابط القائمة بين شروط إنتاج الاستعارة وشروط ترجمتها؟ وما هو دور الفهم والتأويل في تمثيل هذه الشروط؟

سوف يكون الجواب عن هذين السؤالين، بالنسبة إلينا، مرتبطا بموضع العلاقة المتعدية الاستعارة/الثقافة، وموضع القابلية على ترجمتهما هو تأسيسها على الوضعية العقدية للتقاليد المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وهكذا، فإن هذه الجمل التالية:

"Je voulais vous prévenir. Mais ne craignez rien. Car c'est l'Eglise que je sens. C'est le christ. C'est pour lui que je porte ce voile sur le visage. Pour lui que j'ai traversé la ville en courant comme un jeune homme. Je me sens comme renaître. Doté de forces nouvelles. Capable de courir jusqu'à Carthage. D'une traite. Sans reprendre mon souffle."⁸

لقد أردت أن أحذرك. لكن لا تخشى شيئا، فأنا أخدم الكنيسة، والمسيح ومن أجله أنا أحمل هذا الغطاء على وجهي، ولأجله عبرت

المدينة جريا مثل رجل شاب، أحس أنني ولدت من جديد، إن قواي تجدد، وأنه بإمكانني أن أذهب جريا إلى قرطاج، بلا انقطاع دون أن أسترد أنفاسي".⁹

تقدم نفسها بكونها فضاء بنية أولية للدلالة تضعنا أمام إمكانية توظيف وحدات دلالية مؤولة لسمات تصورية مرتبطة بقضاء ديني مسيحي يمكن البحث عن تأويلاتها المحتملة من خلال الانسجام الذي تحققه الفضاءات التركيبية للاستعارة. ويمكننا العودة إلى السارد لنجلي بملاحظتين أساسيتين:

أولاهما تبيّن أنها رؤية المترجمة للعالم حيث تراه مظهرا من المظاهر الدالة على طريقة في الارتواء من مبادئ الديانة المسيحية، وتبعا لذلك فهي تبدو جملا استعارية لا تخلو من بساطة في الفهم والتأويل والنقل، فمقام عيسى المسيح "عليه السلام" في النصراية يستدعي إعادة صياغة الاستعارة في اللغة المستهدفة بما يفيد طبيعة العلاقة القائمة بين المخدم والخادم، وأن يحبه، ويحترمه.

ثانيهما، يعد إجراء كلمة مقابل كلمة أخرى مغاليا في التبسيط، ذلك أنه من المؤكد أنه عندما لا يوجد مقابل مناسب في اللغة المستهدفة، يستدعي البحث تحديد ما إذا كان الأمر يتعلق بالسياق الثقافي لمتوالية من الجمل بوساطة مداخل معجمية تنتمي إلى ذات المعجم الذي ينتمي إلى محتوى الاستعارة، ويتعلق الأمر هنا بالتأويل الثقافي لدلالة الانتقال من روما إلى قرطاج، وأنه يعني قبل كل شيء مظهرا من مظاهر التواصل مع صورة للمسيح تتوزعها رحلة إلى روما القوة العسكرية والسياسية المهيمنة، ومنها إلى قرطاج منارة العلم.

وبأي حال، فإن الترجمة ستكون فاعلة عند نقطة تقاطع الخبرة بالقضايا المتحكم في اختيار مختلف أنماط القصد من جهة، والقدرة الذي تسمح بها سمات دلالية وتصورية تعد سبيل تمفصل أنماط هذا القصد، ومن هنا لا تكون الترجمة بين لغتين وثقافتين، حسب، ولكنها تكون على نحو ملائم بين استعارات لها، بالتأكيد، قدرة رسم العلاقة القائمة بين لغة المصدر واللغة المستهدفة.¹⁰ ويمكن تضمين هذه القدرة دلالات أخرى من قبيل:

ترجمة الاستعارة في رواية
ثاغست، القديس أوغستين في الجزائر، لكبير عمي

- الحقيقة التاريخية الموجودة، وتطويرها جمالياً.
- خطوات سانت أوغستين بين روما وقرطاج، في علاقتها
بحديث عن نسق عقدي يريد السارد أن يقنعنا أنه قائم على الصحة
واليقين، ويهدف إلى الدفع بالقارئ لتصوير أن كل ما يرويه إنما يمثل
حقائق تاريخية قد وقعت بالفعل.
إن هذا التأويل الذي وجد في الاستعارة مركز ثقله، يمكن أن
يكون غير ذلك في الواقع وفي أشكال التحقق.
لقد بحث Jean-Claude Chevalier عن الأهمية التي تكتسبها
"أشكال التحقق" *Orthonymie* في فعل الترجمة، فأشار إلى أهمية
أن يعي المترجم دوره كمستقبل للنص في لغة المصدر، وأن الفهم
يستمد مشروعيته من طبيعة التأويل الذي يقترحه. وبالرغم من الهوية
التي يمكن أن تكون بين الثقافات، فإننا لا نتوانى في التأكيد على أن
يكون الفهم واحداً للملفوظ في اللغتين، لننظر إلى الشواهد التالية:

Je prierai pour vous à Bethléem, dans l'Église de la
nativité.

Je prierai Pour vous à Jérusalem.

Je prierai Pour vous tous.

Pour Thagaste.

Pour l'Afrique.

Pour Rome.

Pour ce monde qui s'effrite selon la volonté du ciel.

(P.79)

سأصلي من أجلك في بيت لحم في كنيسة القيامة.

وسأدعو لك في بيت المقدس.

سأدعو لكم جميعاً.

لثاغست.

لأفريقيا.

ولروما

سأدعو لهذا العالم الذي يسير وفق مشيئة السماء. (ص 83)
تكون الأفعال المحسوسة والشخصية التي تنجزها الاستعارة قابلة للفهم بالعودة إلى الوقائع ذاتها، ولا يمكن اختيار أي سمة من سماتها (الفضاء، الكنيسة، العقيدة)، إلا من خلال علاقاتها بـ: الجماعات العرقية (الرومان، النومديون، اليهود، الأفارقة)، والمؤسسة الدينية، والإيمان المسيحي، و**ملوكوت السموات**. وينشأ اختيار سمات، من بين سمات أخرى، عن ملاحظة أن فهم نموذج الواقع الأدبي - وقراءة النص جزء منه - يتوقف على نوعية العلاقة التي أقامتها المترجمة بين طريقة تفاعلها مع هذا الواقع وطرق إدراكها التجارب المشابهة، وابتكار نموذج بديل لعالم هذا الواقع من صنع الذاكرة، ويشكل السياق المعرفي عنصرا مركزيا في إتمام عملية فهم الكيفية التي يتم بها تداول الوقائع ذاتها وبدائلها.¹¹

لا تستدعي العلاقات بين الوقائع في الشواهد السابقة تأويل الاستعارات بشكل أساس، إلا أن المترجمة تكون قد وضعت الأهمية التي تستدعيها أشكال التحقق الموقع الذي يفترضه البعد التداولي والمرجعي للوظيفة الخاصة بالصلاة وطقس الدعاء "Je prierai" في لغة المصدر، و"سأصلي" و"وسأدعو" في اللغة المستهدفة، حيث تم تعيين دلالة الكلمة من المترجمة استنادا إلى مظاهر السياق السوسيو-ديني في أبعاده الثقافية والعقدية، أي بمراقبة أمكنة الثبات التي يستدعيها التقابل بين السمات الدلالية والتصورية لكلمة "s'effrite" والسمات الدلالية والتصورية لكلمة "يسير". إن إعادة بناء المعنى، كما هو الأمر بالنسبة إلى أية صياغة نموذجية، فهي فهم تأويلي يعتبر ضغط النقل الذي تفرضه الأبعاد التداولية للاستعارة في اللغة المستهدفة، استعادة لدلالاتها وإحياء لها.

تبعاً لذلك، فإن دلالة الاستعارة "هذا العالم الذي يسير وفق مشيئة السماء" يستهلكها قصد يحيل على دلالات تتوقعها المترجمة بالعودة إلى سياقها التاريخي والثقافي، ذلك أن أي فهم هو فهم سياقي تابع لمعايير مرتبطة بالسياق الذي تتحكم فيها سَلَمِيَّات الإيمان المسيحي، وهي في سَلَمِيَّات تتسلسل داخل مسار تصويري، وتقضي إلى معان منسجمة:

ترجمة الاستعارة في رواية ثاغست، القديس أوغستين في الجزائر، لكبير عمي

الصلاة من أجلنا
ومن أجل الآخرين

← مقوم:

مشينة الله أراذلهم هكذا حتى تختبر مقاومتهم لطيبات
هذا العالم، وبأنهم في مدينة الله سيكونون من أسعد
السعداء (ص 91)

من البديهي أن تُطرح المشاكل المرتبطة بالبحث عن تكافؤ دلالي نموذجي للاستعارة، ومن هنا تصبح حاجتها إلى درجة عالية من الدقة في الفهم مسألة أساسية عند البحث عن مركزية الاستعارة في إنتاج سمات تمتع بمشروعية الدفاع عن الواقع الحقيقي أو المتخيل للرواية.¹² هكذا، حسب J.-C. Chevalier، توجد "درجة الصفر في تنظيم موضوعات العالم، ودرجة الصفر في وجود تسمية عادية خاصة بها".¹³ هذه الموضوعات التي تمت تسميتها "orthonymes"، وحسب Pottier Bernard فإن دور الاستعارة في تنظيمها، وفك عقال نقلها وترجمتها يحتاجان إلى تقدير شكل من التحقق له خبرة بالمعاني "الأكثر حيادية في خلق ملائمة، بعيدا عن كل إشارة تلميحية بشكل خاص، عند تعيين دال هو نفسه مرجعها".¹⁴ وإذا سائرنا طريقة استدلال Chevalier و Pottier، فإن أشكال التحقق تتولد من شعور باحترام سلسلة من الأحكام والتصنيفات الدينية والاجتماعية التي تلبي متطلبات الدرجة الصفر للحقيقة، وهي نفسها «تمثيل ذهني مستبطن ومثبت، يشكّل - عند مضاهاته بحصيلة الإدراك- أساس السيرورة المعرفية».¹⁵ ومن هنا أمكن للمترجمة أن تسدّ الهوة الثقافية بين لغة المصدر (الفرنسية) واللغة المستهدفة (العربية) وأمكنها فهمها وتأويلها بكيفيتين متفاعلتين ومتداخلتين وذلك من خلال:

- استنفاد الدلالات التي ضمنها كاتب الرواية، والتحكم في مختلف أنماط القصد الممكنة للاستعارة سواء كان قصدا دينيا أو تاريخيا أو سياسيا.

- منح امتياز فهم على حساب فهم آخر عند المقابلة بين مظهر من المظاهر المكونة للفضاء رقم1، ومظهر من المظاهر المكونة للفضاء رقم 2.

يظهر أثر هذا التفاعل والتداخل جليا، حين نعود إلى الدور الذي تلعبه كلمة "السماء" التي تتكرر في الرواية: ما معناها؟ وما هي؟ وأين تكون؟ وماذا يتوقع المسيحي المؤمن أن يجد عندما يصل هناك؟ في الشواهد التالية:

ولكنني توسلت إلى السماء, (ص 69)
مدينة الصمت والحجارة هذه المستسلمة لضوء السماء, (ص 73)
وأخبرهم أن عقيبا سلفك، حفظه الله، يراقبك من أعلى سماءه. (ص 75)
أحيانا عندما أرى الرومان من السماء, (ص 75)
أقفز قفزة واحدة تختصر المسافة التي تفصل بين السماء والأرض, (ص 75-76)

هذه الليلة كنت هائما في شوارع المدينة، وكنت أقول في نفسي، إنها ليست مدينة نائمة، ما هكذا تنام المدن، وعندها سألت الله، دعوت السماء أن ترحم هذه المدينة القلقة، وأن ترحم الناس الذين ينامون، والخوف يسكنهم. (ص 83)
لنثق في السماء, (ص 91)

في استعارات السماء السابقة نجد ثلاثة استخدامات لها:
في أولها نقرأ أن الله سبحانه خلق السماوات والأرض، ويعني بذلك الطبقات العليا من الجو فوق رؤوسنا حيث نعيش ونتنفس لنحيا.

وفي ثانيها تشير إلى الكون والفلك بالكامل، كل الكون المخلوق من مجرات تسبح في الفضاء. وهذا الكون يخبرنا بمجد الله وجلاله.
أما الاستخدام الثالث، فالمقصود به السماء الثالثة، وهي كيان روحي أبعد من تصوراتنا الحسية. هذه السماوات هي مسكن الله حيث مجد الله وهناك جمال صفات الله معلنة في روعة منقطعة النظير.

ثبت لحد الآن أن الاستناد إلى فهم يعد البعد التاريخي والثقافي بهدف ترجمة الاستعارة ألزم المترجمة باعتماد مستويات أشكال التحقق، تلك فرضية معرفية يخطط لها المترجم ليتمكن من فهم قصد الكاتب، وفق إرغام لغة المصدر. ومع ذلك، فإن استعارات أخرى تتطلب بلورة واقتراح تأويلات تخلق أفق انتظار يفعل فعله عند التعامل الثقافي مع الرواية، ويمكن التمثيل على ذلك بالشاهد التالي:

Combien de nuits ai-je dormi en regardant le Ciel,
prie Dieu, dans la tourmente, qu'il ait en sa sainte
garde mon petit Amulius? (P.66)

وكم من ليل بت أرعى النجوم فيها، وأدعو الله في هذه الدوامة أن يحفظ
برعايته صغير "أمينوس"؟ (ص 69)

إن الأشياء والأسماء، هاهنا، بارزة: في الشاهد السابق، تحتكم
الترجمة إلى الصياغة التركيبية الأدبية للنص لتبرهن مركزية النظر
إليها بكونها جملا يتطلب نقلها تعديلا وتغييرا تتحول بوساطته مقصدا
تعكسه العلاقة بين المجالين داخل الاستعارة إلى تناسب يفرضه
"الإسقاط المفهومي بين المجالات في الفكر، فهي قوالب قارة من
التناسب الأنطولوجي"¹⁶: فكلمتا "أرعى" و"أدعو" تدلان على
التوالي "الحفظ والتقرب والانتظار" و"إمالة الشيء إليك بصوت وكلام
يكون منك"¹⁷. وتوضح إمكانية إسناد صفات متخيلة مرة وحقيقية
أخرى إلى مثل هذه القوالب القارة أن الراعي والداعي متميزان من
الحافظ والسامع، وأن الذي يتقرب وينتظر ويصدر صوتا لا يمكن أن
يكون هو الذي يتولى رعاية رعية المسيح.

يقود الحديث عن العلاقة بين الكفاءة الثقافية والكفاءة اللغوية،
إلى القول إن مساحة النقل قد امتدت على مساحة الشاهد، وأن اختيار
الترجمة لسمات تكرر نفسها، مع درجة بسيطة من التغيير والتحويل،
يهدف إلى تأكيد أهمية مداخل معجمية تتضمن ممارسة ثقافية تنطلق من
داخل الاستعارة ذاتها، فدلالة "Ciel" تكافئ دلالة "النجوم" لإحالتها
على العلاقات التي ينسجها المعنى مع المعاني المتعلقة بعبارة "يحفظ
برعايته صغير "أمينوس"، فهي سمات تتطابق مع شكل من أشكال
التحقق، واقعا كان ومتخيلا، ما جعلها تأخذ، في اللغة المستهدفة
مستويين اثنين:

في المستوى الأول لا يوجد ما يوحى بالفرق بين الكتابة في
القضايا اللاهوتية والعقيدة المسيحية، وبين الصياغة السردية للرواية،
ومن هنا تصبح العلاقة بين الاستعارة والرواية نوعا من الحدس بصور
ومشاهد وشخصيات مفعمة برموز ودلالات بعضها يتصل بالعالم

العقدي المسيحي، وبعضها الآخر يتصل بالعوالم التاريخية والاجتماعية والثقافية للمملكة النوميديّة واختلاط الأجناس والديانات.

وفي المستوى الثاني، بالرغم من إخضاع الإسقاط الاستعاري لمبدأ الثبات، فقد حاولت المترجمة تجاوز المستوى البسيط للتسنيين، ما يجعل من قياس وضبط دور الاستعارة في الترجمة، مسألة أساسية في تجنب الخلط بين الأسلوب الروائي والأسلوب الديني. ولكي نُفعل مركزية هذا الاختلاف في الفهم والتأويل يجب أن نعثر على معايير نوعية تساعد في تأويل الأساليب، الحاملة لعوالم أخلاقية وترميزية، وبصفة عامة العوالم الكونية، التي هي محاكاة لمتخيل عوالم مثالية سماوية.

تضعنا بعض استعارات الرواية في مجال دلالي يسمح للمترجمة باقتفاء أثر الوفاء للنص، والعمل على إنجاز ترجمة أمينة وحيادية. والحال أن النقل من لغة إلى أخرى باختلاف أهدافه، بمجرد الانتهاء منه، يسمح بتصوره كعملية نقل من مكان إلى آخر، إن هذا النوع من الترجمة لا يضع موضع السؤال، مجالات تتوسط بينهما، ولا أطوار فهم وليد رحم الترجمة الساكن في قلبها. وبطبيعة الحال فإن التعارض بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي، يضع، على الدوام، الإحالة على الاستفهام المتعلق بالعلاقة بين ترجمة الاستعارة وتأويلها أساساً، لاشتغال فعل النقل وفاعليته.¹⁸

ومن هنا حق لـ: Henri Suhamy الاعتقاد في إمكانية الدفاع عن الترجمة الحرفية، شرط احتفاظها بمبدأ الإحاطة بأبعاد التشوش البلاغي والدلالات المستبعدة والمختزلة للاستعارة في اللغة المصدر. ومن هنا أصبح لزاماً على المترجمة، أن تعتمد فكرة تأويل ونقل فكر الآخر، طالما أن كلماتها ليست نتاج علاقة مع المصطلح.¹⁹

والاستعارات التالية توضح هذه الإحاطة بإبعادها على الرغم من حرفيتها:

J'ai cru à sa mine que c'était un Romain. Le sang se mit à battre si violemment dans mes tempes. Je voulais lui claquer la porte au nez et vous supplier de fuir. Je croyais que mon cœur allait rompre. (P.95)

لقد أعادت المترجمة بناء سماتها الدلالية والتصورية بالاحتفاظ بكل الملامح التركيبية والشكلية التي تتطلبها ترجمتها الحرفية، وعمدت على شحنها في اللغة المستهدفة بمعانٍ تنسجم كلية مع معانيها في اللغة المصدر، والترجمة هي:

"اعتقدت من هيئته أنه روماني، أخذ الدم يتدفق بشدة إلى صدغي، أردت أن أصفق الباب على أنفه، وأترجأك لتهرب، ظننت أن قلبي سيتوقف". (ص 95)

تحتكم المترجمة في الجمل السابقة إلى طبيعة العلاقة القائمة بين المعاني النحوية ومداخل وحداتها المعجمية، لا يمكن لأي مترجم محترف أن يرتبك أمام طبيعة العلاقة بين "cru à sa mine" و"اعتقدت من هيئته" على الرغم الانحراف التأويلي الذي تسببه عناصر المعنى ذاته، وأيضاً، العلاقة بين "claquer la porte au nez" و"أصفق الباب على أنفه" بمعنى "أوصد الباب في وجهه"، حيث أنه لا يمكننا أن نلاحظ بسهولة ظلال المعنى الفارقة بين "أصفق" و"أوصد" وبين "أنفه" و"وجهه". ذلك أنه في مستوى آخر من الفهم المختلف جزئياً، يمكن ملاحظة أنه في سياق من هذا النوع فإن "أوصد" و"وجهه" لا تنسجمان تماماً مع "claquer" و"nez". يمكن، في حال مثل هذه الترجمة، أن يلعب السهو دوراً مركزياً في دفع المترجمة إلى اعتماد مبدأ الحيطة، الأمر الذي جعلها تفضل مبدأ الترجمة "كلمة بكلمة".

تبين شواهد من هذا القبيل أنها تستطيع، في الوضع الذي هي عليه عملية النقل من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، أن عملية النقل، ضمن سياق استعارات الشواهد السابقة، ليست غريبة عن نوع التحيين، الذي تستدعيه التفاعلات الحاصلة في العوالم الممكنة للرواية. فهي تستدعي درجة عالية من الدقة والأمانة، بما أنها، في المحصلة النهائية، حاملة التأثير نفسه الذي تكون قد مارسته في اللغة المصدر. وفي العمق، فإن هذه السلسلة من الصور ليست استعارات وُظفت لتعيين نوعية الترجمة، وحسب، وإنما أيضاً، في جانبها التطبيقي، تزيل كل

الالتباسات الخاصة بكفايتها في نقل التجربة ووصفها كما هي عليه في اللغة المصدر.

قد يبدو هذا النوع من النقل، وهو أمر يمكن الموافقة عليه، مبتذلاً²⁰ إلا أن أغلب المنظرين لترجمة الاستعارة يتمسكون به، ذلك أن الجدل الدائر حول درجة المحافظة على المعاني الأصلية للاستعارة، وطرائق فهمها وتأويلها وطبيعتها، وإجمالاً سياقها، ينهض على الاختيار الإيجابي للمترجمة. ومثل هذا الاختيار تدعمه طرائق أخرى تنطلق أساساً من مقاصد الاستعارة، يتعلق الأمر بسلسلة من الاستعارات في النص التالي:

Mais jamais Personne ne racontera aux enfants des numides que leurs ancêtres en ont décousu avec les Romains. Plus personne ne leur dira que Scipion l'africain en a vu de toutes les couleurs et que, n'en déplaie à Tacite, Jugurtha l'envoyer mordre la poussière.

Flavius est mort.

Est-ce vrai que Flavius, le maréchal-ferrant, ferre leurs sabots aux chevaux dans le ciel? demandent les enfants qui passent devant sa forge close. Est-ce vrai qu'il ira un jour à la recherche de Scipion l'africain, là-haut dans le ciel, Et qu'il en fera de la pâtée pour chien? On leur en fera voir à ces romains quand Flavius nous ramènera cette peau de bique. On le prendra par sa moustache.

C'était un étranger maintenant ?

Cinq années d'absence ont fait de lui un autre homme.

N'était-il pas déjà vêtu à la romaine? (P.9)

ولكن، لا أحد، أبداً، سيحكي لأطفال نوميديا عن أبائهم الذين تقطعت أواصرهم بالرومان، ولا أحد سيقول لهم بأن "سيبيون الإفريقي" رأى

كل ألوان العذاب، وإنه لم يكن مرغوبا فيه عند "تاسيت" وأن
"يوغرطة" طرده شر طردة.

لقد مات "فلافيوس".

يتساءل الأطفال، وهم يمرون أمام أبواب كورة الحديد الموصدة، هل
صحيح أن فلافيوس الحداد كان يُنعل الخيول في السماء؟ وهل، حقيقة،
سيذهب في يوم ما للبحث عن سيبليون الأفريقي في أعلى السماء،
ويصنع منه خبيصة للكلاب. سنُري الرومان عندما يأتي فلافيوس بذلك
التيس، سنعلقه من شاربه.

الآن يشعر أنه كان غريبا.

خمس سنوات من الغياب كانت كافية لتجعله رجلا مغائرا، ألم يكن قد
تزيّ بالزي الروماني؟ (ص 7)

لنحاول البحث عن حلول المترجمة التي مكنتها من فهم
الاستعارة وتأويلها ثم ترجمتها. إن هذه الجمل ليست غريبة عن الثقافة
التي أسهمت في إنتاج الرواية، كما أنها جمل تستند إلى استعارات يكمل
بعضها بعضا. وهي في نظرنا سبيل تصور مسارات دلالية تخص بناء
استعارات النص وأشكال تلقيه من قبل المترجمة. ومن نافلة القول إن
استعارات الجمل السابقة متنوعة باختلاف أنواعها. وعلى هذا الأساس،
فإن الكشف عن هذا التنوع منوط بشروط محددة وأصول معروفة في
نظريات ترجمة الاستعارة.²¹

إن صيغة تقديم خطابات استعارات الجمل السابقة، تشير إلى
العناصر الدلالية التي تسهم في التواصل على مستوى خطاب الرواية.

في: "ont décousu avec les Romains" "الذين تقطعت
أواصرهم بالرومان".

يعد حضور محمولات فعل "تقطع" باستعمال وحدات
معجمية، بصفاتها عنصرا من عناصر خطاب الاستعارة، سبيل تميز:

انقطاع جبال المودة؛

التفرق في الأمر؛

انقطاع الأسباب والوصل.²²

حيث ينحصر دور المترجمة في تعيين مستويات التقابل النحوي والمعجمي، هذا النوع من الترجمة يتكرر ويتوارد في المضامين الممكنة للرموز المعتمدة في التمييز بين:

- الوحدات العرفية: إطلاق لفظ "الأواصر" على ما اعتاد الناس عليه من قرابة في العرق واللغة والدم والدين.

- الوحدات الثقافية: أو كل ما له علاقة بمقومات العقيدة والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب للأمة النوميديّة في مقابل المقومات ذاتها الخاصة بالأمة الرومانية.

وقد تتجاوز المترجمة مستويات التقابل النحوي والمعجمي، فتستند إلى درجة متوسطة من الإطناب الذي عادة ما يسهم في توضيح دلالة التعبير الاستعاري، وبطريقة مختلفة²³ عما هي عليه في لغة المصدر، وفي هذا تثنين لعناصر المعنى في السياق التداولي وهنا تبدأ الحاجة إلى فهم يسهم في تحيين الأعراف والقيم الاجتماعية والثقافية التي يسميها إيزر بالسياق السوسيوثقافي العام²⁴ الذي تنبثق منه الاستعارة، ففي:

"a vu de toutes les couleurs" "رأى كل ألوان العذاب".

يتعلق الأمر في الشاهد السابق بصياغة تصورات، تمكن من فهم الاستعارة انطلاقاً من:

1- عدم قابلية الاستعارة للترجمة اللغوية.

2- عدم قابليتها للترجمة الثقافية.

يعود عدم قابليتها للترجمة اللغوية إلى الاختلافات، التي تقوم بين اللغة المصدر واللغة المستهدفة على مستوى المداخل المعجمية لكلمة "couleurs" وسماتها الدلالية والتصورية، وبالرغم من أن هذه المداخل بسماتها تنتمي إلى الثقافة، التي أنتج الخطاب في إطارها، فإن المترجمة تكون قد اقترحت إيجاد مكافئ دلالي في إطار الانزياح الذي يستدعيه الترابط والتوافق بين المكافئ الشكلي والمكافئ النصي للاستعارة.

قاد مستوى هذا الاختلاف المترجمة، إلى معالجة الانزياح الواقع بين اللغتين، عن طريق التحكم في التشعب الواقع بين التكافؤ الشكلي، والتشعب القائم بين التكافؤ النصي. ومن هنا أمكننا ملاحظة

ترجمة الاستعارة في رواية ثاغست، القديس أوغستين في الجزائر، لكبير عمي

مستويين من الانزياح الاستعاري: انزياح من نوع شكلي، أسهم في تحقيقه على مستوى التركيب اختلاف في عدد العناصر المعجمية بين اللغة المستهدفة وتلك المُسندة إليها العبارة الاستعارية في اللغة المصدر. وانزياح نصي، يتمثل في المستويات الدلالية، التي أسهمت في إنتاجها الوحدات الدلالية الصغرى، والتي أمكن استثمارها في عملية الترجمة على مستوى البنية والقيمة والوحدة الدلالية الصغرى ومرتبته. ففي اللغة المستهدفة تحمل الاستعارة بعضاً من قيمتها التداولية من حضور كلمة "العذاب" فهي تستقطب ألم الذات النوميديّة بما يجسد معاناتها وأحلامها وشعورها بالقهر والإذلال. وهي القيمة ذاتها التي أمكن من تحقيقها دون الاستعانة بما يقابل تلك المادة اللغوية في اللغة المصدر.

ويمكن أيضاً أن نرد استعارة "mordre la poussière" إلى خانة الاستعارة الميتة أو المبتذلة، مثل تلك التي تعود، حسب امبرتو إيكو، حالات تظهر فيها العبارة الاستعارية مقبولة حرفياً.²⁵ استعمل "كبير عمي" جملة قد تفهم حرفياً، على اعتبار أنها استعارة قديمة جداً، وأنها ومحينة ومتداولة في اللغة المصدر، فقد كان المصارعون يتنافسون عادة فوق أرضية رملية أو مغبرة، وكان المنهزم عادة ما يرغم على ملء فمه بالرمل أو الغبار. وقد جاءت ترجمتها "طرده شر طردة" محملة بدلالة قد تفهم حرفياً في ثقافة اللغة المستهدفة.

والحال أن فهم الاستعارة وتأويلها وترجمتها أمور تكشف الحد الفاصل بين الواقع المتخيل. فهو حد لا يمكن اختزاله إلى المعنى الذي رامه كاتب الرواية، وإنما ينبغي له أعمق من ذلك أن تتضمن الترجمة سمات ومقومات اتخذت من السياق التاريخي والثقافي في العقيدة المسيحية من الاستعارة مرتكزا للوجود.²⁶ وعليه فمفهوم التحقق يشغل من حيث آلية من آليات قراءة ظاهرة الرحلة إلى السماء، في مثل:

"ferre leurs sabots aux chevaux dans le ciel?"
"كان يُنعل الخيول في السماء"

بما أنها مؤلفة من سمات دلالية وتصورية يُسند بعضها بعضا، يظهر أثر ذلك واضحا في التأويلات الممكنة للمفهوم المسيحي المتعلق بظاهرة الصعود إلى السماء "في مركبة من نار وخيل من نار"، ولن يكون هذا التعلق مشروعا ومألوفًا، إلا إذا تم بناؤه كما يلي:

1- يمكن أن نصادف شكلا من التحقق يجمع بين الواقع والخيال، وفيه أن الخيول كانت تُستخدم في الماضي كثيرا في خوض الحروب. وأن هناك راكبين على خيل من السماء ليُظهر أن الله سيخوض حربا ضد البشر لتدمير شر على الأرض.

2- يقود الحديث عن خيل في السماء إلى القول إنها تتوجه إلى الذين يعرفون الكتاب المقدس. وتمدنا هذه المعرفة بسمات خاصة، مثل سمات "اسم الله"،²⁷ والسمات المعبرة عن "وحدانية الله وسلطانه المطلق"،²⁸ وأيضا، السمات الروحية، وهي مسكن الله الخاص، ولذلك يقال إن الله في السماء وإنه إله السماء.²⁹

يمكن ملاحظة ذلك ببسر من خلال تأمل العبارة التالية: "صعد إلى السماء" يعني من بين ما يعنيه، "الصعود إلى الأب"³⁰ وهو يرسم سماتها التصورية استنادا إلى طريقة في تفكي الإنسان أثر علاقة مثالية مع السماء. ومن هنا يصبح رمز "المسار نحو السماء" واحدا من الرموز النمطية المثالية، التي توجه الإنسان وترشده في أثناء عبوره من العالم الأرضي إلى ملكوت السماوات.

يبدو أن المترجمة قد تعمدت اقتفاء أثر بياض وفراغ موجودين على مستوى هذا النوع من الاستعارات، وأخرى في مثل:

Mais tu as préféré te jeter dans les bras de l'ennemi.
Devenir un romain. Te vêtir à la romaine. (P.20)

- لكنك فضلت أن ترتدي في أحضان العدو، وتصبح رومانيا، وتزَيّ بالزي الروماني. (ص 19)

لقد سمح هذا للمترجمة بالتحكم في البعد التداولي الذي يستدعيه تعبير استعاري متعلق بجسدية ثقافة الانتماء إلى منطقة بعينها، فاللباس سمة لاصقة بوضوح بالمنطقة على أساس أن نوعه وألوانه وطريقة خياطته ودرجته من البساطة أو الفخامة، سمات تفترض أن هذا النوع من الصياغة المجازية، حسب Joan Bertrand، يكون قد

ترجمة الاستعارة في رواية ثاغست، القديس أوغستين في الجزائر، لكبير عمي

وظف لخلق محيط يرتبط بواقع محدد، ومفصول عن واقع آخر، حيث يكون الوصف غير منسجم مع نمط آخر من الأوصاف شائع بدوره. إن السمات الدلالية والتصورية لـ: "تزيى بالزي"، وعلى الرغم أنها مهجرة، ليست مقنعة وحسب، بل إنها مؤثرة في القارئ. وهكذا أسهم السياق التاريخي والسوسيو-ثقافي في فعل الفرز والتصنيف عند البحث عن سمات ومقومات كلمة "vêtu".

يتبين من نسق السمات والمقومات أن مدلولات الإيحاء المرتبطة بالمعنى خففت من غلواء ما أسماه Maryvonne Boisseau بـ: "الصمت/السكون الاستعاري" "métaphorique silence"، وجنب الاستعارة حيادية تفقدها بعدها الخيالي³¹ وتدخلنا في البؤرة المركزية التي تدور حولها الرواية وهي وطنية القديس أوغستين والشك في انتمائه الذي يجسده تبرؤ والده باتريسيوس منه حيا وميتا، ما يسنح بفتح المجال أمام تأويلات شتى خاض فيها المؤرخون تتعلق بانتماء أوغستين ونةميديته، ووثنية أبيه والصراع الذي دار بين الدوناتيين والكنيسة الرومانية التي تولى أوغستين ترسيخ مبادئها في المملكة النوميديّة، لذلك تنتهي الرواية بما بدأت به بقول باتريسيوس الأب لأوغوسطين كما تخيله في عتاب يقول فيه:

- سأنسى بأن لي ابنا في سنك، يشبهك في ملامحك... من فضلك لا تخبر أحدا بأنني أنا باتريسيوس النوميدي، والد هذا المتشرد ذي الأقدام الحافية الذي يرتدي الصوف. الوداع يا أوغستين، وداعا يا ولدي.

إن هذا الحوار المتخيل يتشابه مع الحوار الذي كان في بداية الرواية ويلخص النسق الاستعاري الذي تنبني عليه والذي تعرضنا إلى جانب منه في هذا المقال.

هوامش:

1- Salah Mejri, Traduire La Langue, Traduire La Culture -Rencontres Linguistiques Méditerranéennes, P.22.

2- Salah Mejri, Ibid., P.22.

3- Antoine Berman, L'Âge de la traduction. "La tâche du traducteur" de Walter Benjamin, un commentaire. Textes rassemblés par Isabelle Berman avec la collaboration de Valentina Sommella. Presses Universitaires de Vincennes, Coll. Intempestives, décembre 2008. P.123.

4- Hurtado Albir, Amparo (1990): La notion de fidélité en traduction, Paris, Didier Érudition, P.607.

5- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التتاص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1992. ص19-30.

6- Voir par exemple, Palimpsestes 17: Traduire la figure de style, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 2005.

7- هريبرت بيشت وجنيفر دراسكاو، مقدمة في المصطلحية، ترجمة: الدكتور محمد محمد حلمي هليل، مجلس النشر العلمي، الكويت، 2000، ص15.

8- Kebir M. Ammi, Thagaste Saint Augustin en Algérie, Edition de l'Aube, 1999 et 2002 pour l'Édition de Poche, P.77.

سأكتفي في الصفحات القادمة، عند توثيق النصوص المنقولة من الرواية، بذكر رقم الصفحة في متن البحث.

9- كبير م عمي، ثاغست، القديس أغسطين في الجزائر، ترجمة آمنة بلعلی، منشورات ألفا، قصر المعارض، الصنوبر البحري، الجزائر 2008، ص81.

سأكتفي في الصفحات القادمة، عند توثيق النصوص المنقولة من الرواية، بذكر رقم الصفحة في متن البحث.

10- Hurtado Albir, Amparo (1990): La notion de fidélité en traduction, Paris, Didier Érudition, P.607.

11- Lederer, Marianne (1994): La traduction aujourd'hui, Paris, Hachette, P.37.

12- Jean-Claude Chevalier, Marie-France Delport, Problèmes linguistiques de la traduction. L'horlogerie de Saint Jérôme. P.724.

13- Jean-Claude Chevalier, Marie-France Delport, Ibid. P.724.

14- Groupe M, Rhétorique générale, Seuil, 1982, P.24.

15- Groupe M, Op. cit, P.24.

16- الأزهر زناد، نظريات لسانية عرفانية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الطبعة الأولى: 1431هـ، 2010م، ص145.

17- ينظر، ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مادة رعي ودعا.

18- Catherine Gottesman, Quelques réflexions sur la traduction littéraire, Klincksieck | Ela. Études de linguistique appliquée. 2006/1 – n°141, P.98.

19- Jean Darbelnet, Traduction littérale ou traduction libre? Meta: journal des traducteurs/Meta: Translators' Journal, vol. 15, n°2, 1970, P.90.

20- Voir par exemple, Jean-Pierre, Français-Créole. Créole-Français. Éthique. Pratiques, Problèmes, enjeux. L'Harmattan, 2004.

21- Voir par exemple,

- Jean-Claude Margot, Traduire sans trahir: la théorie de la traduction et son application aux Textes bibliques. Préface de Georges Mounin, Copyright, 1979 by Editions L'Âge d'Homme.
- Bernd Stefanink, Bref aperçu des théories contemporaines de la traduction1; *Monde*, n°310 (Mai-juin 2000), PP.23-27.
- Myriam Suchet, Outils pour une traduction postcoloniale: littératures hétérolingues, Copyright, 2009, Editions des archives contemporaines.
- 22- لسان العرب، مادة قطع.
- 23- Voir par exemple, Black, W.J. (1988), Les systèmes intelligents basés sur la connaissance, Traduit de l'anglais par H.de Feraudy. Paris. Edition Masson.
- 24- W. Iser, L'acte de lecture, Mardaga, 1985, P.128.
- 25- ينظر، امبرتو إيكو، تأويل الاستعارة، ترجمة وتقديم: لحسن بوتكلاني <http://www.fobyaa.com/?p=5108>
- 26- عادل عبدالله، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الخطاب والتوزيع، ط1، 2000، ص76 وما بعدها.
- 27- ينظر، قاموس الكتاب المقدس، مادة سماء، لو 15: 18.
- 28- ينظر، م ن، مادة سماء، مت 6: 33، 12: 28، 19: 24، 21: 31 و 43، 19: 23 و 24.
- 29- ينظر، م ن، مادة سماء، متى 45: 5 و 1 كورنثوس 15: 47.
- 30- ينظر، م ن، عب 1: 3.
- 31- Maryvonne Boisseau, Présentation, Palimpsestes 17, P.11.